ذلك يذكرني

قاسم حول

الفضائيات العربية والجامعة العربية وبعض الفنانين مشغولون كثيراً هذه الأيام بمساعدة اللاجئين العراقيين في بلدان الجوار. والإعلام مشغول كثيراً باهتمام الجامعة العربية حيث حال العراقيين الهاربين من جحيم الاحتلال لا يدعو للمسرة ويبدو وكأنه يمس الشرف العربي، فالفضائيات ومقدمات البرامج الحسناوات ومقدمو البرامج العروبيون يرسمون مسحة الحزن والغضب على وجوههم وهم يستصرخون الضمير وتسند كلماتهم بمشاهد من حال اللاجئين في القطر العربي السوري والقطر العربي الأردني والقطر العربي المصري، وعيونهم تقطر دمعاً، بل وتذهب بعض الفضائيات بعمل برامج خاصة في زيارة العائلات العراقية وتقديم هدايا تدمع عيون النساء وتفرح الصغار (بوتو غاز، براد، مدفئة) ويشعر الناس بالإمتنان للقناة ولصاحبها ولأمين عام الجامعة العربية.

عدد اللاجئين العراقيين بعد الاحتلال بلغ حوالي أربعة ملايين لاجئ يضافون إلى ثلاثة ملايين احتوتهم بلدان أوربا وأمريكا وكندا وإستراليا. وبين ثلاثة الملايين أبان حكم الدكتاتور ما يقرب من ثلاثة آلاف مثقف في مجال الأدب والفنون، وبعد الاحتلال هاجر ما تبقى من الفنانين والأدباء.

ذلك يذكرني بالنازحين الفلسطينيين عام ١٩٤٨م عندما تنادت الأمم المتحدة وشكلت منظمات إنسانية لعب الإعلام دوراً هاماً في الترويج لهذا الموقف الإنساني الذي بدونه كان صعباً على اللاجئين الحصول على الحليب والعدس، وتمكن الإعلام من استقطاب الرأي العام العالمي لحال اللاجئين الذين بلغ عددهم في لبنان حوالي ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألف لاجئ، أما الآخرون فتوزعوا بين الأردن وسوريا، ولا زالت واقع اللاجئين يشكل مشكلة لبنانية وسورية وأردنية.

فماذا عمل الإعلام في خضم لتلك الهجرة الفلسطينية. لقد لعب الإعلام وعبر حوارات وبرامج وأفلام وثائقية كثيرة صورت بالأسود والأبيض وبثت من التلفزة وعرضت ضمن الأخبار المصورة السينمائية، تمكن الإعلام أن يلعب دور الاستقطاب ودخل في تفاصيل مشكلات اللاجئين وأوجد حلولاً لحياتهم وأنقذ ربما حيوات كثيرة كان يمكن أن تموت في الطريق. فأنقذ النازحين ولكن فلسطين راحت. ومنذ عام ١٩٤٨م وحتى اليوم وحتى إشعار آخر لا يزال الحديث عن مخيمات اللاجئين وحل مشكلاتهم الحياتية والإنسانية، ولم يبحث الإعلام عن جوهر المشكلة الفلسطينية، ولم يبحث حقوق الأرض والمواطنة والتأريخ.

اليوم يتكرر المشهد بالآلية الإعلامية نفسها وبنفس الصيغة والسيناريو ولكن بالألوان. يتم تصوير اللاجئين العراقيين بالأبعاد الثلاثة وعلى شرائح ذاكرة الكاميرا وبالبث المباشر وعلى أقمار اصطناعية تخترق أثير الكون وتصل كل البيوت وتؤثر عليهم وقد تدفعهم لجمع التبرعات وتشكيل اللجان المساندة لتقديم العون إلى اللاجئين العراقيين في مخيماتهم وهم لاجئون ليس من الصومال بل من وطن اسمه العراق يغفو فوق بحر من النفط والكبريت والزئبق الأحمر. والإعلام لا يجرؤ ولا يريد وبتوجيه مؤكد أن يتناول حقيقة الأزمة العراقية وجذورها، ولماذا تم احتلال العراق ولماذا يصار إلى محو هويته الحضارية والثقافية ولماذا استهدف رأس العراق ومن هم المستوطنون الذين يحلون محل العراقيين وكيف الحل لكي يستعيد العراق عافيته ويتمكن أن يحكمه أهله ويعيدون بناء الحياة والمعرفة والثقافة ويخلصون الأرض من الأوبئة والأسلحة التي تسقي الزرع سرطانات غريبة.. لا يتحدث الإعلام والإعلاميون عن استعادة العراقيين لوطنهم ومطالبة الأمم المتحدة في إعادة الحق إلى أهله من المحتلين، بل يتحدثون في كل برامجهم عن توفير العدس والحليب لأبناء المخيمات.

ذلك يذكرني بالإعلامي الذي كان ينتمي إلى مديرية الشرطة السرية في العراق في الحقبة الملكية عندما حصلت جريمة قتل شاب في أحد أزقة بغداد وأصبحت الحادثة تروى كنكتة عربية حيث كتب لكي ينصع وجه الشرطة السرية قائلاً (بعد أن سمعت الشرطة الوطنية بنبأ جريمة اغتيال شاب في أحد أزقة بغداد، سارعت للقيام بواجبها الوطني. وبعد جهد جهيد عثروا على المقتول والقاتل هرب) بنفس المستوى ولكن بصيغة مختلفة وبالألوان تسارع الفضائيات ويسارع المثقفون للقيام بواجبهم الإنساني وعثروا على اللاجئين وتحدثوا مع الجامعة العربية التي بادرت لمباركة المشروع وتبنيه من أجل تقديم العدس والحليب وبناء مدرسة أيضاً مثل ما فعلت الأونروا حيث بنت للاجئين الفلسطينيين المدارس ولكن القاتل هرب. واليوم فالذي كان سبباً وراء هجرة العراقيين لا يجري الحديث عنه بل يطلب منه المساهمة في تقديم التبرعات إلى اللاجئين العراقيين وهو (يعد) بذلك، وكأنه سيسهم في حل مشكلاتهم في حين السلطة هي المشكلة وليست الحل والمحتل هو المشكلة وليس الحل، وما يطلق عليه المقاومة هي المشكلة وليست الحل، والمستوطنون من بلدان الجوار وأبعد من بلدان الجوار هم المشكلة وليس الحل.

والفضائيات بالتالي هي المشكلة وليست الحل!

والمثقفون الذين يقفون وراء حملات التبرع ويخلقون مشاعر جياشة تخرج من شاشات التلفزة وتلهب قلوب المشاهدين هؤلاء هم الأخطر في المعادلة عندما يلخصون بقدراتهم الثقافية والأعلامية مسألة الوطن العراقي المفقود والمهدد بالضياع، يلخصون ذلك بمشكلة اللاجئين والعدس والحليب. بذلك يشكلون جوهر المشكلة وليس جوهر الحل الذي يلزم المثقف قبل غيره بأن يقرأ التأريخ جيداً ويعيه ويقرأ الواقع جيداً ويعيه وهو الأكثر معرفة بأبعاد اللعبة أن لا يقع في شباك البحث عن العدس والحليب ويعتق نفسه من اللعبة ويبدأ بالحديث عن وطن تمتد جذور ثقافته إلى أكثر من سبعة آلاف عام وهذا الوطن هو الذي اخترع الكتابة المسمارية أول حرف في التأريخ مكتوب ومقروء صورة وصوتاً. هذا الوطن يعاني من الأمية الآن وهذه الأمية لا تحلها بناء مدرسة لأبناء اللاجئين، فالأمية المتفشية في العراق جوهرها قبول الأمر الواقع ومعالجة توفير الحليب والعدس لشعب يغفو على بحر من الخيرات والإرث الحضاري، وأكثر ما أخشاه أن نحصل على حليب وعدس ومدرسة من الأونروا ونخسر وطناً اسمه العراق.

– سينمائي عراقي مقيم في هولندا
sununu@wanadoo.n

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب «7591» ثم أرسلها إلى الكود 82244

مداخلات لغوية

كعند زيدٍ نمرة

أبو أوس إبراهيم الشمسان

ليست النمرة التي عند زيد أنثى النمر؛ بل هي كساء مخطط يلبسه الأعراب، وليست المشكلة هنا بل في المبتدأ؛ فالنحويون يرون أن (نمرة) وهي النكرة مبتدأ مؤخر وجوباً و(عند زيد) خبر مقدم وجوباً أو هو متعلق بالخبرً المحذوف، والأصل (نمرة عند زيد) وإنما وجب تقديم الخبر لأن تأخيره – حسب سيبويه – يجعله يلتبس بالنعت، فالسامع سينتظر الخبر (نمرة عند زيد...!) فما شأن النمرة التي عند زيد؟ ولكن دعونا نتأمل في التركيب، فَالظرف متعلق بمحذوف وجوباً؛ فالتقدير (كائنٌ عند زيد نمرة)، أفلا يجعله هذا أخص (أي أقل تنكيراً) من (نمرة)؟ أفلا يستحق بهذا أن يكون هو المبتدأ لكونه عاملاً؟ وعمل النكرة هو المسوغ الخامس من مسوغات الابتداء عند ابن عقيل (١: ٢١٨) (رغبة في الخير خير)، وقياساً عليه (كائن عند زيد نمرة)، يمكن أن نقول إذن إن نمرة هي الخبر، وهذا أمر يعضده المعنى؛ لأن الفائدة التي محلها الخبر إنما هي في نمرة، فنحن نعرف زيداً ونجهل ما عنده والجملة حملت لنا الخبر عن الكائن عند زيد وهو نمرة.

ولبعض النحويين قول آخر وهو أن (زيد) المجرور هو المبتدأ من حيث المعنى؛ فهذا السهيلي يقول في (نتائجً الفكر،٤٠٩): (وهو وإن كان]الاسم المعرفة المجرور [خبراً في اللفظ فهو المخبَر عنه معنى؛ لأن الخبر إذا كان مقدماً ومعرفةً فإن كان في اللفظ خبرَ المبتدأ فإنه في المعنى مخبرٌ عنه؛ لأن التعريف والتقديم يجرّان إليه ذلك المعنى، فكأنك قلت (على زيد دينٌ) إنما قلت (زيدٌ مديان)، وإذا قلت: (في الدار امرأة) إنما أردتً: (الدار فيها امرأة). فلذلك حسن الإخبار عن النكرة ههنا في اللفظ، لأنه ليس خبراً عنها في الحقيقة... فكم من مجرور في اللفظ مخبر عنه في الحقيقة). وقول السهيلي قد يعني أن الجملة (في الدار امرأة) جملة متحولة عن أصل أعمق هو الأصل المتعلق بالمعنى (الدار في الدار امرأة)؛ ولكن الاستعمال لا يجيز تكرار الظاهر، فكان الخيار بين طريقتين إما حذف الأولى (... في الدار امرأة) أو حذف الثانية وجعل ضمير في موضعها لأنه لابد للجار من مجرور (الدار فيها امرأة).

وعلى الرغم من وضوح قضية المعنى يتأثر هذا المبتدأ اللفظي بما يتأثر به المبتدأ اللفظي المعنويّ، ونعني بذلك النواسخ الحرفية؛ إذ تنصبه (إنَّ) كما في قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ) «البقرة:٢٤٨»، وقوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ) «آل عمران:١٣». وكان على النحويين أن يَختاروا اللفظ أو المعنى فاختاروا اللفظ؛ لأنه يحقق لهم اطراد قواعدهم، ولو اختاروا المعنى لتخلوا عن وجوب نصب (إنَّ) للمبتدأ، ولقالوا إنها قد تنصب الخبر أن لم تجد المبتدأ كما أن الفعل يرفع المفعول به فيكون نائباً عن الفاعل حين يقتضي المعنى حذف الفاعل، فيقال (أُكرِمَ عمرٌو). وهم بحاجة إلى القول مع السهيلي أن المبتدأ قد يأتي مجروراً، وهم يعربون الاسم بعد (ربَّ) مبتدأً وإن كان مجروراً، كما في قول امرئ القيس:

أَلا رُبَّ يَومٍ لَكَ مِنهُنَّ صالِحٌ ... وَلا سِيَّما يَومٍ بِدارَةِ جُلجُلِ

– الرياض